

رحلة بحرية - مع الماعز !

حقق أبى من عمله الخاص الكثير بالإضافة إلى ما ذكرته ، إذ بدأ هناك عمله فى أطلس تاريخ الإسلام الذى لم يكن فى بداية الأمر مشروعًا كبيرًا ، بل كان فكرة بسيطة تطورت وأصبحت ذلك الكتاب العظيم الذى نعرفه جميعا . ثم عمل أيضًا فى كتاب سيرة محمد ﷺ وفى كتب أخرى لا أذكرها حاليًا على وجه التحديد . وساهم بمقالات فى مجلة العربى وبأبحاث فى مجلة عالم الفكر ، وكان يتسبب عمودًا يوميًا فى جريدة القبس سماه « كلمة طيبة » حقق كل ذلك وهو جالس يوميًا فى الثانية ظهرًا إلى ما يعرب من الثامنة مساء على نصف منضدة السفرة المخصص لعمله .

أما العطلة الأسبوعية فكانت يوم الجمعة ، وكنا نخرج من البيت بعد الصلاة نتناول الغداء فى مطعم اسمه سقراط وبعد الأكل كنا غالبًا ما نذهب لزيارة أستاذ صديق كانت تجمعنا به وبأسرته صداقة منذ أيام أسبانيا ، إذ كان يعمل هناك وكيلًا للمعهد . وأذكر أننا كنا نزورهم كثيرًا فى يوم الجمعة وكانت زوجته حاملًا فى الطفل الخامس . وأذكر أنهم كانوا متأكدين أن هذا الطفل سيكون ولدًا وكانوا سيسمونه « يوسف » وحدث أن الطفل كانت

بتنا (وهم الآن يقيمون فى مصر ، وقد أصبحت شابة جميلة جدا وذكية يتجاوز سنها العشرين بقليل) .

وكان الحديث يجرى فى هذه المناسبات والزيارات إما عن عمل بجمع بين أبى وصديقه وزميله أو عن ذكريات أسبانيا . فكان يذكر أبى - على سبيل المثال - احتفالات العاملين بمعهد مدريد حيث كانوا يذهبون إلى مطعم معروف بالمشويات وكان اسمه « كاسايدرو » ويوجد قرب « البلاثا مايور » بمدريد ، وكان يذكر كيف كان صديقه هذا يتقاسم بينه وبين سكرتير المعهد فى هذا الوقت ثلاث دجاجات مشوية ، إذ كان يأكل منهما دجاجة ونصفا ولا يتعبان من هذه الكميات أبداً ، بينما كان باقى الجالسين يأكلون ريعا أو نصف دجاجة فقط . (وقد توفى سكرتير المعهد وهو صديق عمر طويل بعد أبى بيومين أما أولاده فله بنت متزوجة من مصرى ومقيمة فى ألمانيا وأخرى مرافقة لزوجها فى بلد عربى وولد مهندس ناجح يقيم فى مصر) .

وبما أننا نتكلم عن الطعام نخطر ببالى الآن نادرة من نوادر أيام الكويت الكثيرة إذ كان لأبى صديق هو طبيب مصرى معروف ودعانا هذا الطبيب على العشاء فى مطعم تابع لفندق مهم . وذهبنا لتقابل الطبيب الداعى وزوجته فى المطعم المحدد وكان المطعم مظلماً إذ يتصور أصحاب هذه الأماكن العامة دائماً أنهم يضيفون جوا رومانسيا على المكان عندما يقللون الإضاءة فيه . فسمعت أبى يقول لصديقه بعد أن جلسنا على المنضدة المخصصة لنا :

- يا أخى إتنى لا أستطيع أن أراك .
- أفندم يا دكتور ؟
- أعنى أتنى أراك فى هذا النور الباهت ولا أدرى كيف أرى الأكل فى طبقى حينما يأتون به .
- هل تفضل أن نغير المكان ؟
- ليتنا غيرنا المطعم كله .
- وحدث أننا تركنا المطعم وذهبنا إلى « كافيتريا » الفندق وكان مكانا جميلا أيضا وبه نور قوى جدًا . وسمعت صديقنا الطبيب يقول لأبى ونحن نجلس :
- إنك فضحتنى يا دكتور .
- لماذا ؟ فأنا لم أقصد ذلك أبدًا .
- فقال صديقنا :

- فضحتنى لأننى كنت أتيت بزجاجة .. أريد أن أشرب منها خلال تناولنا للعشاء ولكننى الآن لا أعلم أين أضعها بل أين أخفيها فى هذا النور .

- تستاهل يا أخى ، زجاجة إيه دى !
وضحك أبى عندما رأى الزجاجة ملفوفة جيدا والطبيب يمسك بها تحت إبطه . وبعد حيرة طويلة أوقفها أخيرًا على الأرض تحت

منضدة الأكل بين قدميه ، وكان طوال الوقت خائفاً أن تقع هذه الزجاجاة على الأرض فقد تنكسر ويفتضح أمام الناس .

ويرجع هذا لأنه من الممنوع فى الكويت تناول المشروبات الكحولية ، فجرت العادة أنه من لديه هذه العادة أن يأتى بمشروبه وأن يضع الزجاجاة على الأرض إلى جانب منضدة الأكل بعد أن يملأ منها كوبه ومن يفعل ذلك كان يحقق المثل الذى يقول « ولا من شاف ولا من درى » ، فكان بذلك يحترم قواعد البلد التى يزورها وفى نفس الوقت يرضى مزاجه ، ولكن كان من المهم أن تكون الإضاءة فى المكان ضعيفة . وهذه واحدة من القصص والحكايات والتناقضات الموجودة على اختلافها فى جميع بلدان العالم . أما صديقنا الطيب فكان كلما قابل أبى بعد ذلك قال له « حرمت يا دكتور والله ولك الفضل فى ذلك » .

وهكذا مرت أيام الكويت هادئة ذات جمال خاص ، وعند تخرجى من الجامعة هناك أتيت إلى القاهرة حيث كان أخى مقيماً وحيث بدأت أعمل فى آخر نفس هذه السنة . وكنت بعد ذلك أزور أبى وأمى أحياناً فى الكويت ، ولكن ارتباطاتى العملية فى مصر كانت تحدد من هذه الزيارات .

وعندما سألت أمى مؤخراً عن أهم شىء تذكره عن الكويت ردت قائلة . هناك أشياء كثيرة كانت مهمة . وربما يكون أهمها سوق الكويت والمشتريات ، إذ لم يكن فى أسواق مصر فى هذه

الأيام شيء من مستلزمات الحياة من أدوات كهربائية لازمة للحياة اليومية ولا ملابس ، فكان كثير من الناس يلجئون إلى « شارع الشواربى » حيث يجدون الأشياء المستوردة أو إلى « تجار الشنطة » الذين كانوا يمثلون ظاهرة حقيقية فى هذه الأيام إذ انتشروا انتشارا مذهلا .

وقد تكون أسمى على حق إذ كنا نجد فى المطار عند عودتنا إلى مصر فى عطلة الصيف جميع المصريين وقد حمل كل منهم فى يد مروحة كهربائية وفى اليد الأخرى بطانية ذات ألوان جميلة مغلفة فى ورق شفاف وكذلك جهاز « راديو ترانزستور » يحمله المسافر العائد تحت إبطه . ولا أظن أن السوق المصرية تحسنت إلا فى الثمانينات ثم لم تصبح سوقا بمعنى الكلمة إلا فى التسعينات حيث أصبح من الممكن شراء أى شيء فى مصر والاستغناء تماما عن المنتجات الأجنبية أو عن إحضار أى شيء من الخارج .

وأذكر أنه كان علينا أن نأتى بكل شيء من خارج مصر فى فترة الستينات والسبعينات . فعلى سبيل المثال كانت إبر الحياكة المصنوعة فى مصر - وتعتبر الأكبر من أبسط الأشياء - كانت تُصاب بالصدأ فتفسد القماش أما الخيط المصرى فكان غالبا ينقطع أثناء الحياكة . كان كل شيء غير موجودا ولو كان موجودا فإن نوعيته كانت رديئة للغاية ويكفى أن نتذكر « فترينات » المحلات فى مصر فى هذه الفترة ، إذ كانت خالية من أى شيء يحتاج

إليه المشتري لحياته اليومية ولست أعنى هذه الكماليات بل المنتجات الأساسية التي قد توفر حياة حديثة كريمة مربحة للمواطنين . وعبر أبى عن فترة الستينات فى مصر فى كتابه باشوات وسوبر باشوات (١٩٨٤) الذى مازال موجوداً فى السوق حتى اليوم بعد أن طبع منه حتى الآن ما يفوق العشر طبعات إذ لا أعرف أحداً لم يقرأه . وأظن أن أبى كان قد فتح باب الكتابة عن هذه الفترة التاريخية الحاسمة بالنسبة لمصر بهذا الكتاب (ويذكرنى هذا بأننا لم نر ولم نستمع عن ناشر هذا الكتاب منذ ما يقرب من خمس سنوات على الأقل : عسى أن يكون بخير) .

وكان قد نشر كتاب « السوبر باشوات » فى بداية الأمر على شكل مقالات فى مجلة أكتوبر فى صيف ١٩٨٣ وحازت هذه المقالات إقبالا شديداً من القراء .

وعندما كان أبى يجهز مجموعة مقالات لكى تنزل على هيئة كتاب - وحدث ذلك أكثر من مرة - لم يكن يقدم للناشر المقالات كما هى بل كان يقرأها بتأن وعناية شديدة ويضيف إليها فقرات وأحيانا صفحات كاملة حتى لا تظهر فى الكتاب المطبوع ثغرات ، ثم كان يضيف مقدمة تغطى الموضوع حتى يصبح كتابا علميا من الممكن الاعتماد عليه . وأذكر أن أمى كان يثيرها الضيق من مراجعات أبى المطولة لكتبه وكانت أحيانا تأخذ منه ما يحضره للناشر وتقول له : « إن هذا يكفى وجبدا لو كلمت الناشر الآن حتى يستلم المخطوط غدا » .

وبما أنى ذكرت كتاب « السوبر باشوات » يجب ذكر كتاب « دراسات فى ثورة ١٩١٩ » (١٩٧٦) الذى ذكر فيه أبى - وأعتقد أنه أول من يقوم بذلك - أن ثورة ١٩٥٢ كانت تنويجا للثورة المصرية نحو التحرر التى بدأت فى الحقيقة فى عام ١٩١٩ . ولا يعنى ما كتبه أبى فى كتاب « السوبر باشوات » المذكور عن الفترة التى جاءت بعد ثورة ١٩٥٢ أنه لم يرحب بقدموها . فقد كان حسبا ذكرته أمى لى متحمسا لها حماس باقى المصريين حينذاك ، ونتج عن حماسه هذه كتاب آخر من أجمل كتبه وهو كتاب « مصر ورسالتها » (١٩٥٥) المعروف . وتحكى أمى أن حماس أبى للأحداث السياسية فى مصر فى الخمسينات جعله يكتب هذا الكتاب فى وقت قصر إذ كان - حسب كلامها - يعمل فيه ليلا ونهارا ولأن أفكاره كانت تأتى إلى ذهنه بسرعة مذهلة كان قلمه لا يلاحق فكره فى الكتابة فكان يدفع بالورقة المكتوبة بكف يده حتى تظهر الورقة البيضاء التالية أمامه يكتب عليها الجملة التى فى ذهنه قبل أن ينساها .

وكان يفعل بكل ما يحدث فى مصر سواء كان على أرضها أو فى سفر ، وكان دائما ينظر للأمور من الناحية الإيجابية المشرقة التى قد يجىء منها الحل والطريق لمستقبل أحسن ، ولم يعرف انتماء حقيقيا إلا انتماءه لمصر ولم يجمال أحداً على حساب مصلحتها أبداً . وأذكر بهذه المناسبة أنه كتب مقالا فى مجلة

أكتوبر كان موضوعه « نحن لا نحب الروم ولا الأمريكيين » وذكر فيه كيف تعاني مصر وقتها من كلتا الكتلتين على قدم سواء . وحدث أنه تسلم خطابا بعد ذلك بأسبوع تقريبا من الغرفة التجارية الأمريكية حيث كان عضو شرف فيها يبلغونه بإيقاف عضويته فيها .

كان لأيامنا في الكويت - كما ذكرت - طابع خاص سمته الأولى هي الشعور بالاستقرار والحياة الهادئة . وأحيانا كنا نقوم برحلات غالبا ما كان يحدث ذلك مع أصدقاء أبي الكويتيين . فأتذكر - على سبيل المثال - أن دُعي أبي ونحن معه لزيارة جزيرة فيلكة الكويتية . فقالوا له إننا سنبحر في أرض الكويت للجزيرة بـ « لانش » يمتلكه أحد أصدقائهم . ففكر أبي في الموضوع وكانت تدور بباله فكرة أن ربما كان الذي سيقود هذا « اللانش » لا يعلم قيادته جيدا ، فكثير من أبناء الأثرياء يقودون كل شيء بدون استخراج رخصة قيادة رسمية تسمح لهم بهذا . فخشى على نفسه وعلى من معه وقال له « إننا نريد ضمان وصولنا إلى الجزيرة . وأخشى أن ينقلب بنا هذا « اللنش » فنغرق في البحار ولا نجد من ينقذنا ، ساعتها لن نرى فيلكة ولا أى شيء آخر . أرجو أن تدبر لنا الرحلة بالطريقة المعتادة لهذا الغرض حتى نصل آمين » . واتفقوا على الميعاد واليوم والمكان ..

ووصلنا حسب المتفق عليه في مكان يشبه الميناء الصغير ، وإذا

بمركب خشبي كبير جدًا واقف قرب الشاطئ . كان مركبا ضحما كبيرا لم يقف على مرسى أرض الكويت ، بل كان على مقربة من الشاطئ . ولم يكن لهذا المركب سلم يصعد عليه ، بل كانت هناك خشبة طولها أقل من عشرة أمتار ، أما عرضها فكان تقريبا عشرين سنتيمترا . ولم تكن هذه الخشبة صلبة قوية بل كانت تميل بوزن من يخطو عليها . أما البحر ما بين هذا المركب والشاطئ فكان لونه قاتما مما يدل على أن المياه كانت عميقة . ورأينا أنه لا يصعد على هذه الخشبة إلا قطيع من الماعز .. كان عددا كبيرا من هذه الماشية وكل مجموعة معها راعيها وكان جميع الرعاة من أصل إيراني . فإذا صعدت ماعزة منها وحدها على هذه الخشبة قام راعيها بشدها أو بدفعها إلى أمامه حتى تصعد إلى المركب .

وبعد صعود مجموعة منها يأتي الراعي الذي بعده . عرفنا بعد ذلك أن هؤلاء الرعاة كانوا يأتون بهذه القطعان لكي ترعى على الجزيرة ثم أنه - على ما أظن - كان في الجزيرة سوق يبيعون فيه هذه الحيوانات .

ووصلنا نحن - أي أبي وأمي وأنا - فحينا أصدقاء أبي ووقفنا نتفرج على الماعز وراعيها وهم يصعدون على هذا المركب القديم وكلما بلغ أحدهم منتصف الخشبة إذا بها تميل وتنقوس إلى أسفل وكأنها ستتكسر ، هذا مع الضجة العالية التي كان يحدثها رعاة الماعز وأصوات الرعاة . كنا نتفرج ونحن غير مدركين أن نفس

هذا المركب هو الذى سينقلنا نحن أيضاً إلى فيلكة . وبعد قليل سأل أبى أصدقاءه عن المركب الذى سنقوم عليه برحلتنا فقالوا له هو نفس هذا المركب وأنه بمجرد صعود جميع القطعان ورجعاتهم فإننا سوف نصعد . فسكت أبى ولم يقل كلمة فقال له صديقه : « ألم تقل يادكتور أنك تخشى ركوب اللانش ؟ هذه هى المواصله الشعبية العادية لفيلكة » . كان من عادة أبى أنه لا يجب أن يجازف فكان دائماً يبحث عما هو آمن ومع ذلك كان جريئاً جداً عندما يستلزم الأمر ذلك .

وعندما سمعت أمى أننا سنستخدم هذا المركب نفسه انزعجت كثيراً وقالت بتصميم : « إننى لن أترك زوجى يصعد هذا المركب على هذه الخشبة . هذا أمر خطر جداً . لا تريد أن نذهب إلى فيلكة : وأظهرت بذلك خوفها الشديد على أبى وسلامته ، فكانت طوال عمرها معه تخشى ما قد يصيبه وكان أبى لذلك أحياناً يخفى عنها ما قد يثير فيها الخوف . فكان عندما يسافر - على سبيل المثال - يحدد لها مدة سفره للخارج ثم بعد انتهاء المدة يكلمها تليفونيا فيبلغها بأن الرحلة ستطول بضعة أيام حتى يتم كل ما كان ينوى أن يحققه وكان معظم أسفاره لذلك يزيد على المدة المتفق عليها من البداية وكان يظن أن ذلك سيخفف أمر الفراق عليها .

المهم : عندما رأى أبى خوفها هذاها بقدر الإمكان حتى جاء دورنا فى صعود المركب وأمى تريد منع أبى من ذلك لأنها كانت

تخشى على سلامته . ولكنه صعد ثم تبعته أنا وأخيرا صعدت
هى . ومضت الرحلة البحرية ونحن محاصرون بعشرات من الماعز
ومعها رعاتها وكانت أمى تقول بصوت خافت « ليتنا كنا أخذنا
اللانث » .

ووصلنا فيلكة وزرنا هناك متحفا صغيرا به بعض الآثار الإغريقية
أو الرومانية (لا أتذكر بالضبط) وأكلنا ما كنا قد أتينا به من
مأكولات لأن الجزيرة لم تكن مجهزة آنذاك لاستقبال الزوار ،
ثم عدنا آخر النهار وأظن أننا لم نخرج فى رحلة أخرى بعد
ذلك .

مضت حياتنا أيام الكويت هادئة مستقرة وكانت تتيح لنا الفرصة
للدخول فى مناقشات طويلة مستفيضة نتذكر خلالها أيام أسبانيا
أو نخطط لشيء سوف نقوم به فى مصر . وكان هذا غالبا
ما يحدث أثناء تناول أبى لعشاءه . فكان - كما قلت - يقف عن
العمل فى حوالى الثامنة مساء وكانت أمى تذكره بالميعاد لأن أبى
حينما كان يعمل كان ينسى الوقت تماما فكان ينهمك فى عمله
ويعيشه بفكره وكيانه . بعد عمله اليومى كان يتناول العشاء على
منضدة صغيرة فى حجم صينية الشاى التى كانت تضعها له أمى
فى غرفة المعيشة أمام التليفزيون ، ثم ينزل بعد العشاء ليمشى
نصف ساعة تحت العمارة . ومعظم عمارات الكويت كانت مبنية
مرفوعة فوق أعمدة فكان هو يمشى نصف ساعة ثلاث مرات
يومية - أى بعد كل وجبة من الوجبات تحت هذه الأعمدة وأحيانا

كنت أنزل معه وفي أحيان أخرى كان يأتي أحد أصدقائه ليمشي معه إذ اكتسب الكثيرون من أصحابه عنه . بعد ذلك عادة المشي اليومي . وكثيرا كان ينزل وحده . بعد ذلك كان يعود ويغير ملابسه ويجلس معنا أنا وأمي إلى ميعاد نومه عند منتصف الليل أو بعده بقليل .

وأثناء جلساتنا هذه كان يدور معظم تفكير وكلام أمي حول موضوع بيتنا في مصر . فكنا عندما نعود إلى مصر في العطلات الصيفية نزل ونقيم في البيت في ميدان الروضة ، وكان كل أمل أمي أن يستعيد أبي « فيلا » . كان بناها تابعة لمنشآت هيئة التدريس بجامعة القاهرة وكانت وراء شارع مصدق بالدقي . كان أبي قد أصر أن يؤجرها بعد إتمام بنائها ونحن في سفر خارج البلاد حتى لاتمكث خالية ويسرق ما فيها مثل الحمامات والأبواب وغير ذلك . وكان ذلك كثيرا ما يحدث في البيوت الخالية .

وهكذا أوجرها لرجل ثرى بأجر رمزي ، وكان الاتفاق بينه وبين هذا الرجل الساكن أن يخليها بمجرد عودتنا من أسبانيا إلى مصر ، وعندما طلب منه أبي أن يخلي البيت لم يف الرجل بوعده وتمسك بقانون الإيجار الجديد الذي كان . يراعى حقوق الساكن على حساب حقوق صاحب الملك الأصلي .